

1600 - الأساس: الكتاب الأول: الافتراضات الأساسية (41)

الصحة النفسية (34)

الإدراك (3)

من أين نبدأ /1؟

انطلاقاً من ثقافة اللغة العربية وثقافة التوحيد؟ أم من أين؟



مقدمة:

إذا أردنا أن ننظر في مفهوم ما، أو أن ندرس ظاهرة، ما نفهم أنفسنا فالإنسان في الصحة والمرض؟ من أين نبدأ؟
أى ظاهرة قابلة للدراسة لها اسم شائع، (غالبا) قابل للتغير والمراجعة،

وأى اسم هو لفظ عادة، ينتمي للغة ما، وهو يرمز لما يتضمنه أو يشير إليه

نحن الآن بصدد دراسة ظاهرة "الإدراك"، أليس كذلك؟
من أين نبدأ؟

وأى اسم يمكن أن يهدينا إلى أقرب ما نريد دراسته؟
هل نبدأ مما يسمى الـ "بريسيشن"، ولا مؤاخذه، فنبحث عن ترجمته الأشهر (وهي الأخطأ) بأنه الإدراك.

- أم نبدأ من اللفظ العربي مباشرة كما جاء في معاجم لغتنا؟
- أم نبدأ من الاستعمالات المتفق عليها في أبحاث شركات الدواء؟
- أم نبدأ من لغة البحث العلمي عموماً إن كانت له لغة خاصة؟
- أم نبدأ من إشكالاته الفلسفية والتاريخية؟
- أم نبدأ من حضوره في وعى المرضى ومن ثم خطابهم وشكاواهم؟

أحد ظاهرات قابلة للدراسة لها اسم شائع، (غالبا) قابل للتغير والمراجعة، وأحد اسم هو لفظ عادة، ينتمي للغة ما، وهو يرمز لما يتضمنه أو يشير إليه

أحد من تشويه وعينا القومي، وتلوث ثقافتنا إذا نحن استسلمنا للبداية بالترجمة من خارج ثقافتنا، وخاصة فيما يتعلق بتشكيل وجداننا

- أم نبدأ من الشائع بين أغلب عامة الناس في استعمالهم لهذا الاسم بلغة أهل الثقافة المعنوية واستعمالاتهم لاسم الظاهرة؟ أعنى الاسم الذى يطلق على الظاهرة قيد البحث؟
- أم نبدأ من الإبداع؟

رجعة إلى مخاطر البدء بالترجمة

المسألة ليست ثانوية، وقد سبق أن تناولتها فى أطروحتى عن **"مخاطر**

الترجمة" على تشكيل وجداننا الذى هو جزء جوهرى فى ثقافتنا، وأنا أذكر من

تشويه وعينا القومى، وتلوث ثقافتنا إذا نحن استسلمنا للبدائية بالترجمة من خارج

ثقافتنا، وخاصة فيما يتعلق بتشكيل وجداننا، وقد تناولت بالتفصيل إغارة لفظ

"دبرشن" على مشاعرنا حتى كدنا ننسى نبض الحزن العظيم وعلاقته بالحزن (بفتح

الزين) والقوة والشدة، كذلك لفظ "الهم" وعلاقته ببدء النزوع (همت به وهم بها)

وبالهمّة إلى آخر ما جاء فى أطروحتى بعنوان: **"مخاطر الترجمة على تشكيل**

الوعى".

بدلا من الرجوع إلى تفاصيل الأطروحة سوف أضرب مثلا عمليا:

يأتينى المريض وأسأله مم يشكو، 'بتشنتكى من إيه؟ إيه اللى تاعبك؟ فيقول : عندى "ديبرشن"، فأستسمحه ألا يستعمل كلام الأطباء السابقين، أو حتى كلام الإعلام، ونحن فى بداية تعرفنا على بعضنا البعض، وأعاود السؤال بشكل آخر عن "ما الذى يؤلمه"، ما الذى يزعه؟ ما الذى جعله يأتى للطبيب النفسى، فيقول: " قلت لك عندى "ديبرشن"، فأقول له أحيانا (إذا استشعرت أنه سوف يتحملنى) ، أنا لم أسمع هذه الكلمة من أمى ولا مرة واحدة، مع أنها كانت تصاب بمثل ما تشكو منه غالبا، الستَ تعنى شيئا قريبا من الحزن أو الهم أو الضيق أو اليأس أو الضجر أو السأم ، (طبعا لا أقول له ذلك بالفصحى لكننى أحب اللغة العربية جدا وكثيرا ما أفضل ترجمة الحوار إليها، عذرا وسأكمل بالعامية المصرية)، أعنى أقول له:

إن أمى كانت تقول فى مثل حالتك غالبا " انا طهقت

من نفسى، باين على ما عننش نافعة، أنا خلاص طلعت

روحى، أنا متنبلة بستين نبيلة، أنا مش حاسة انى عايشة،

كم فرحت
بأستاذك المرحوم
"عبد العزيز
القوصك" حين اقترح
ترجمة هذا
"الدبرشن" إلى
"الانهباط" لتبنيته
عن حزننا العظيم

هناك أكتتاب
وجدانك
Wjdanic (وهو
الأكتتاب الدورك
الحيوك النشط
البيولوجك الإيقاع)
فك مقابل
الأكتتاب غير
الوجدانك-Non
Wjdanic (وهو
الأكتتاب اللزج
النحائب المحسطن
المزمن غالبا،
الطفيلك أيضا

والمصحف الموت أهون، قُطعت العيشة واللى
عاشينها.. إلخ"، فماذا عندك من أى من ذلك؟ فينظر إلى
مبتسما، وربما يشفق على أمى - الله يرحمها- فأوصل، "إنت
بقى عندك إيه من ده كله؟" فيقول: قلت لك عندي "ديبرشن"،
فأوصل بسخف أنقل، سائلا إياه يا أخى إيفرض أنا ما بفهمشى
إنجليزى، وما باعرفشى فى كلام الدكاترة اللى قالوك الكلمة
دى، ما تعرفشى توصف لى حالتك وتقول إنت بتشتكى من
إيه، ولو فتَح كلام؟ وقد يلتقط ما أريد، ويفهم مغزى
إصرارى، أو قد يتصور أننى أمزح معه، وقد يستغرب وأقرأ
فى وجهه أنه قرر أن يذهب لزميل أفضل منى يعرف
"إنجليزى" ... إلخ

التحذير أقدم وأكثر إشكالا

تذكرت أن هذه المخاوف وذلك التحذير كانت تصاحبني منذ بدأت الاصرار
على الكتابة بلغتي دون سواها (تقريبا) تجلى ذلك وأنا أكتب أطروحتي عن "العواطف
والانفعال"، وقد جددتها عدة مرات، ولم تنشر مكتملة حتى الآن، وقد تساءلت آنذاك
أيضا "من أين أبدأ"، لم تنتج لى فرصة حوار مثلما عرضت الأمر حالا مع ظاهرة
الحزن الذى تاه حتى وأنا أحاور مريضى حول اللفظ المستورد "ديبرشن"، وكم فرحت
بأستاذى المرحوم "عبد العزيز القوصى" حين اقترح ترجمة هذا "الديبرشن" إلى
"الانهباط" لتمييزه عن حزننا العظيم

هذا وقد واجهت آنذاك نفس التحدى وأنا أختار عنوان الأطروحة: هل هى
نظرية فى الانفعال؟ أم فى العواطف؟ أم فى الوجدان؟ أم فى المشاعر؟ أم فى ماذا؟
ورحت استرشد بموقف اللغة الإنجليزية عن أقرب لفظ لما أتناوله هل هو Affect
أم Emotion أم Feelings أم غير ذلك، ولم تساعدنى الإنجليزية فى أى من ذلك.
هذا ليس موضوعا ثانويا لأننى فوجئت بضرورة الاستقرار على اتفاق ما
لأواصل إبلاغ ما أريد

فى أطروحة أقصر وأكثر تحديدا حين عاودنى التحدى فى تسمية بُعد
تشخيصى نابع من ثقافتنا أيضا، وهو من بين أبعاد مضافة Dimentions، لتمثل
مستوى ثالثا للتشخيص غير التصنيف الوصفى بالأعراض، وغير
المحاور Axes الشائعة فى التشخيص الأمريكى الرابع، وقد نشرت الفكرة الأساسية
لهذا التصنيف فى افتتاحية المجلة العربية للطب النفسى، بالإنجليزية للأسف [1]. وقد
تفضل رئيس التحرير الأخ الزميل أ.د. عدنان التكريتى بقبول إدخال لفظ

إن لسان كل أمة هو
تاريخها الحيوى
المتراكم فى عمق
وجودها الآنك،
ولغتها بالتالى
منطلق معارفها فى
مجال ما هو ظاهرة
بشرية معرفية/
وجدانية

إن ما يسمى بالعلوم
الإنسانية، والنفسية
خاصة، ينبغى أن
تستلهم مادتها من
لسان أهلها، لا أن
تستوردها ابتداء
من "سلوك" غيرها

إن اللغة العربية
بوجه خاص، يمكن
أن تؤخذ باعتبارها
من أثرى مصادر
معرفة أبعاد
مسيرتنا أن تحتل
مركزها المحورى
فى أحد محاولات
للتعرف على
حركية نمونا
وأمكانية بعثنا

wjdan إلى الإنجليزية، وهو اللفظ الذي نحتُّ حين لم أجد ما يقابله في الإنجليزية، وأنا اصف البعد "وجداني" غير وجداني" الذي أوصيت أن يضاف كبعد مستقل يلحق حتى بتشخيص الاكتئاب نفسه ، بمعنى أن هناك اكتئاب وجداني Wjdanic (وهو الاكتئاب الدورى الحيوى النشط البيولوجى الإيقاع) فى مقابل الاكتئاب غير الوجداني Non-Wjdanic (وهو الاكتئاب اللزج النعاب المجسدن المزمن غالبا، الطفيلى أيضا)، وطبعا أثار ذلك دهشة الزملاء الأكبر (ورفضهم السرى أو العملى) لكننى حين دربت تلاميذى الأصغر على استعمال هذه الأبعاد، نجحوا أكثر بكثير فى "الاتفاق" Reliability فى تصنيف المرضى، بما فى ذلك الفصامين على هذا البعد أكثر من اتفاقهم على التشخيص التقليدى على المحور الأول للتشخيص، ولعل هذا هو ما شجعتنى أن أفحمَ لفظ Idrak إلى الإنجليزية لأنه كما سوف نرى ليس له ما يقابل لفظ الإدراك بالعربية كما سيتبين من فحصنا له لاحقا.

ولشدة اهتمامى بهذه القضية، نشرت رأىى هذا فى الأعداد الأولى من هذه النشرة اليومية منذ أكثر من خمس سنوات نشرات 14-11-2007، 17-11-2007، 18-11-2007 عن ماهية الوجدان!!

أنهيتها كما يلى :

- 1 - إن الظاهرة أسبق من لفظها.
- 2 - إن لسان كل أمة هو تاريخها الحيوى المتراكم فى عمق وجودها الآتى، ولغتها بالتالى هى منطلق معارفها فى مجال ما هو ظاهرة بشرية "معرفية/وجدانية".
- 3 - إن هذه اللغة - حتى بحضورها المعجمى المحدود - فى حركتها الموحية، هى المصدر الأول (وليس الأخير) فى تحديد التوجه نحو ما ينبغى - ويمكن - دراسته من ظاهرات.
- 4 - إن الجدل بين هذا المصدر الأول، وبين الموقف المتجدد منه هو المجال الأصيل لتحريك اللغة وتوليدها، وهو الشعر.
- 5 - إذن، فإن ما يسمى بالعلوم الإنسانية، والنفسية خاصة، ينبغى أن تستلهم مادتها من لسان أهلها، لا أن تستوردها ابتداء من "سلوك" غيرها، كما ينبغى أن تستلهم منهجها من جدل الشعر، لا أن تنقله من قياسات الظاهر، وبهذا فقط: يمكن أن توصل وتضيف، لا أن تختزل وتعيق.
- 6 - إن تقدسنا لما هو علم - بالمعنى الحديث الضيق - ينبغى أن يراجع تماما حتى لا يصير النشاط المعرفى حكرا على فئة بذاتها، تمارس من خلاله الوصاية على وجودنا ومشاعرنا، مع عجزها عن الإحاطة بأقل القليل مما هو

إن علم التفسير (تفسير القرآن الكريم) يمكن أن يتحرك من جديد، بعد أن حسنته الألفاظ الساكنة

نحن، بسبب انغلاقها الساكن في مصطلحات جامدة (مستورد أغلبها) بما يفصلها حتما عن الظاهرة الأصل.

7 - لكل ذلك، فإن اللغة العربية بوجه خاص، يمكن أن تؤخذ باعتبارها من أثرى مصادر معرفة أبعاد مسيرتنا أن تحتل مركزها المحورى في أى محاولة للتعرف على حركية نمونا وامكانية بعثنا، وبالتالي تصبح البدايات منها (لا مجرد الترجمة اليها) هي أكبر إلزاما على ضمائرنا وأنشط محرك لفاعل معرفتنا. وعلينا أن نتوقع إذا أحسنا استلهاها أن تقف في مواجهة اللغات الأخرى - بما تمثله - في حوار حضارى يعود على الجميع بالتكامل المحتمل والحتمى إن كان للإنسان أن يواصل مسيرته من واقع إيجابيات ثقافة كل لسان.

إحياء حركية اللغة: آمال ومخاوف

وقد أنهيت الأطروحة بأنه قد يترتب على إحياء حركية اللغة - هكذا - والبدء منها أن نواجه تحديات رائعة مضيئة مثل:

1 - إن الفلسفة، التي كادت أن تختزل إلى علم كلامى تجريدى منفصل عن الالتحام بالمسيرة اليومية وجدل الوعى، يمكن أن يدب فيها نشاط معرفى وجودى حقيقى، لتعود مغامرة كيانية؛ تقوم بها ذات استوعبت أكثر من ذاتها، فتستطيع أن تتجاوز مجرد إعادة ترتيب التجريد السمعى والساكن والتسوياتى، إلى إعادة تخليق التركيب المعرفى الغائر، وتحريك الكل الجدلى فى صياغة جديدة متولده ومولدة، فتعود الفلسفة تعبيراً عن العمق اللغوى الوجودى فى حركة الدؤوبة (يقوم بها الأسمى والبداىى والمتقف على حد سواء).

2 - إن علم التفسير (تفسير القرآن الكريم) يمكن أن يتحرك من جديد، بعد أن حبسته الألفاظ الساكنة، والروايات المنتهية فى ما كاد أن يجعل ألفاظه الموحية مجرد مقامات تزار كما هي، قد نبكى عليها أو نفرح بها واقفين أو جالسين، مع أنها كيانات حية لا بد وأن تتحرك مع الزمن فى كل إتجاه يمكن أن تعد به، فتتجاوز نفسها إلى ما يتخلق منها، وبهذا وحده نفهم النصيحة أنه "اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك" ونرفض حتما وصاية المصطلحات العلمية العاجزة فى محاولتها لاحتواء النص القرآنى الحيوى، تحت زعم تفسير علمى؛ أو ترويج

علم العلوم
الإنسانية (النفسية
خاصة)، أن تعيد
ترتيب اهتماماتها
بحيث تكون
منطلقاتها من
واقعين أساسيين:
الخبرة المباشرة،
واللغة الأم،

المخاوف أن نتراجع
عن المحاولة بوساطة
من يهمهم قعودنا
ساكنتين داخل
أصنام ألفاظهم،
لنظل نستلهم
إعادة تشكيل
وجودنا من وعاء
لغوى غريب علينا،
مهما كان رائعا
قد ذاته لأمله

عصرى، الأمر الذى لم يقع فيه الرواة من العلماء
(والمتعالمين) فحسب، بل الثقاة من اللغويين والمفسرين
كذلك.

وعلى العلوم الإنسانية (النفسية خاصة)، أن تعيد ترتيب
اهتماماتها بحيث تكون منطلقاتها من واقعين أساسيين:
الخبرة المباشرة، واللغة الأم، ثم تستعين بعد ذلك - لاقبله -
بمسيرة المعرفة الموازية من كل حذب وصوب، وبكل لغة
أخرى - ومنهج.

.....
.....

هذه كلها آمال، فأين المخاوف؟

أن نتراجع عن المحاولة بوصاية من يهمهم قعودنا
ساكتين داخل أصنام ألفاظهم، لنظل نستلهم إعادة تشكيل
وجودنا من وعي لغوى غريب علينا، مهما كان رائعا فى ذاته
لأهله.

وبعد

أعتقد أن ما ألاجئى إلى البداية الأسبوع الماضى باقتطاف مولانا نفرى مدخلا
لدراسى الحالية لموضوع الإدراك هو هذا الموقف المبدئى على غرابته وغربته
بالنسبة للعلميين والأطباء، ولعل ما قام به مولانا نفرى من تصنيف بكل دقة من واقع
هذا الاستلهم من الوعى الكونى المتواصل إلى الله سبحانه تصنيفا شديدا للدلالة يدعم
موقفى الذى أعرف أن أحدا لا يوافقنى على التمدادى فيه، ويعتبره على أحسن الفروض
موقفا غير علمى، مع أنها بالنسبة لى قضية أساسية، وهى التى حالت بينى وبين
الإسهام مع زملائى الأفاضل فى جهدهم الرائع الذى تعهدته "الشبكة العربية للعلوم
النفسية" بقيادة الصديق الرائع أ.د. جمال التركى، فى إعداد معجم الألفاظ العربية
للمصطلحات النفسية، حيث لم أستطع أن أخالف موقفى من أن نقطة الانطلاق للتميز
هى من ثقافتنا التى تصلنا من مرضانا ومن لغتنا ومن إبداعنا ومن موقفنا الإيمانى
وثقافة التوحيد أساسا،

(كما قد نبينها فيما بعد)

ما قام به مولانا
النفرى من تصنيف
بكل دقة من واقع
هذا الاستلهم من
الوعد الكونى
المتواصل إلى الله
سبحانه تصنيفا
شديدا للدلالة يدعم
موقفى

وهذا الموقف
(قضية أساسية) هو
الذى حالت بينى
وبين الإسهام مع
زملائى الأفاضل
فى جهدهم الرائع
الذى تعهدته
"الشبكة العربية
للعلوم النفسية"
بقيادة الصديق
الرائع أ.د. جمال
التركى، فى
إعداد معجم
الألفاظ العربية
للمصطلحات
النفسية